

القديس أفرام السرياني

أفرام السوري، أو أفرام السرياني، أو أفرام النصيبيني، أو أفرام الرهاوي، والملقب بـ"قيثارة الروح القدس"، هو أبرز آباء الكنيسة الأرثوذكسية الناطقين بالسريانية وأعظم شاعر كنسي في الأدب السرياني. ولد أفرام حوالي عام 306 في مدينة نصيبين من أعمال بلاد ما بين النهرين. لا نعلم شيئاً عن عائلته فالبعض يؤكد أنها كانت مسيحية والبعض الآخر يستبعد ذلك مؤكداً ان أباه كان كاهناً وثنياً وان أفرام اهتدى إلى المسيحية شاباً، وتلمذ ليعقوب أسقف مدينته، فنهل من علمه وصحبته.

رسمه يعقوب شماساً إنجيلياً، فأقام على شموستيته حياته كلها يعظ ويعلم ويرثم أروع الأناشيد وأطيب الشعر الديني. ترك نصيبين بعد سقوطها في قبضة الفرس في العام 363 وسكن الرها (أوديسا باليونانية أو أورفه) إلى ان توفاه الله عام 373، التي كانت مركزاً مسيحياً وثقافياً هاماً، إذ اجتمعت فيها الثقافتان اليونانية والسريانية. وفي الرها خدم الكنيسة شماساً وخطيباً يفسر الكتاب المقدس، ولاهوتياً يحارب أصحاب البدع، وشاعراً ينظم الأناشيد الروحية، وناسكاً متوحداً حين تسنح له الفرصة. توفي أفرام بعد أن أصيب بالوباء الذي فتك بأبناء منطقة الرها. تحتفل الكنيسة بتذكاره في الثامن والعشرين من كانون الثاني.



أهم مؤلفاته، من دون شك، هي الأناشيد والترانيم الروحية الكثيرة التي وضعها. وتصعب، في هذا المجال، الإحاطة بجميع آثار أفرام وتمييز الصحيح من المنسوب إليه. والجدير بالذكر أن في السريانية نوعين من الشعر رئيسيين: الميمر والمدراش. أما الميمر فهو منظومة تُقرأ ولا تُنشد، وتأتي أبياته على نمط واحد من التقاطيع، وقد تصل أبيات الميمر إلى ألوف الأبيات، لذلك يمكن الميمر أن يحمل مادة تعليمية متنوعة. وأما المدراش فهو منظومة تُنشد إنشاداً وأبياته معدودة. وقد برع أفرام في النمطين معاً فكان، في ميامره ومداريشه، لسان العقيدة الأرثوذكسية.

ما ثبت لأفرام من القصائد والأناشيد نذكر: 65 مدراشاً "ضدّ الهرطقات" هاجم فيها المؤلف أضاليل المنجمين (ما زال أهل القرن الحادي والعشرين يتابعون تفليكاتهم) وبعض الهراطقة؛ 78 نشيداً "في الإيمان" هاجم فيها الأريوسيين الذين أنكروا ألوهة السيّد المسيح، ومنها 51 نشيداً في الفردوس يتغنّى فيها ببهاء السماء؛ 12 نشيداً "في الفطير" يحتفل فيها بآلام المسيح وقيامته؛ 25 نشيداً "في الكنيسة" و15 نشيداً "في البتولية"، وغيرها في الصلب والصوم.

اشتهر القديس أفرام بصفته كاتب صلاة التوبة التي ترافقنا في كلّ صلوات الصوم الكبير، ولأهمّيتها نوردها كاملة:

"أيّها الربّ وسيّد حياتي، أعتقتني من روح البطالة والفضول، وحبّ الرئاسة والكلام البطال، وأنعم عليّ أنا عبدك الخاطيء، بروح العفة واتّضاع الفكر والصبر والمحبة. نعم يا ملكي وإلهي، هب لي أن أعرف ذنوبي وعبوبي، وألّا أدين إخوتي فإنّك مبارك إلى الأبد، آمين."

وهذه الصلاة، بعد صلاة "أبانا"، هي صلاة نموذجية، إذ تجمل كلّ ما يمكن المؤمن أن يصلي ويطلب إلى الله. وقد طلب القديس أفرام في وصيته: "ثلاثين يوماً بعد وفاتي تقدّمون الذبيحة المقدّسة من أجلي، لأنّ الأموات تفيدهم الذبائح التي يقدّمها الأحياء". القديس يجمع الأموات والأحياء، إذ لا أموات في المسيح. فبشفاعات القديس أفرام، الحيّ عندك، أيّها الربّ يسوع ارحمنا وخلصنا.

لم تكن أناشيد أفرام غنية بالصور الشعرية وحسب، بل كانت عميقة لاهوتياً وعقائدياً. فانه يقول مثلاً ان الجنة رُدت الى البشرية في الكنيسة التي هي أكثر بهاء وأكثر جمالا من جنة عدن، التي لم تكن سوى صورة عنها: "من جهة، زرع الله الجنة البهية، ومن جهة اخرى، بنى الكنيسة النقية". وأنشد أفرام للمسيح كونه آدم الجديد الذي أعاد فتح الفردوس، قائلاً: "تبارك الذي بصليبه فتح الفردوس" و "تبارك الذي أبهج آدم"، وايضا: "تبارك الذي أعتقنا لنلا يُؤسر مثاله" و "تبارك الذي خلّصنا من الأسر"، وهو القائل ايضاً: "مبارك من فتح بمقاليد جنة الحياة". تعيد له الكنيسة في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني.